

العلامة المفكر البروفسير عون الشريف قاسم السوداني: حياته وفكره ومؤلفاته
 The Biography and Contributions of Professor 'Aun al-Sharif Qasim
 al-Sudani

* د. عبد المنعم أحمد مُجد

أستاذ مساعد ورئيس مركز اللغة العربية لغير العرب بالجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد

Abstract

This research work emphasizes on the biography, publications and contributions of the Sudanese prominent scholar 'Aun al-Sharif Qasim who born in the North of Al-Khartoum, the capital of the republic of Sudan in 1933 A.D. He wrote many books in Arabic language and his famous book "A Dictionary of Colloquial Dialect in Sudan" specially deals with the studies on the Sudanese Colloquial Arabic language and its impact on the literary Arabic language. Likewise he wrote in literature and language and enriched his scholastic life with many publications. This research work tries to convey the most important book and to give a short thought on it.

Keywords: 'Aun, al-Sharif, Qasim, Sudan, Sudan Scholars, Biography

كلمات مفتاحية: عون، الشريف، قاسم، السودان، علماء السودان.

تمهيد:

لعل من الملفت في حياة العلامة المفكر البروفسير عون الشريف قاسم أنه بالرغم من الحياة الحافلة التي عاشها والمناصب الرفيعة التي تولاها والمؤلفات الكثيرة التي قام بتأليفها فإنه لم يجد من الشهرة خارج بلده السودان حظاً يليق بمكانته الفكرية والأدبية، وربما يرجع ذلك إلى ضعف الإعلام في بلده وعدم اهتمام الإعلام الخارجي بالمبرزين في بعض البلدان الإسلامية والعربية كالسودان مثلاً.

وما البروفسير عون إلا مثال لكثير من مفكري العرب والمسلمين ممن لم تصل إليهم يد الإعلام بما يتناسب مع مكانتهم لتبين مكانتهم السامية الرفيعة في الفكر والأدب، وما يؤيد قولنا هذا أن أديبا مثل الطيب صالح لم يكن ليتبوأ ما تبوأه من مكانة لو أنه عاش حياته في بلده السودان ولم تتح له ظروف النشأة في الغرب ما أتاحت له من الانتشار والشهرة التي يستحقها.

لذا فقد رأيت أن أسلط الضوء على هذا العلم الفذ والبحر الزاخر وقد جمعتني به . رحمه الله تعالى . دروب العلم فقد تتلمذت على يديه طالبا في الدراسات العليا فوجدت فيه سمو الخلق وسمت العلماء وتواضعهم.

حياة العلامة المفكر البروفسير عون الشريف

ولد العلامة المفكر البروفسير عون الشريف قاسم . رحمه الله تعالى . في شمال الخرطوم بمنطقة حلفاية الملوك¹ في عام 1933م وقد تخرج من جامعة الخرطوم في كلية الآداب عام 1957م ثم نال الماجستير من جامعة لندن عام 1960م ثم الدكتوراه في الفلسفة من جامعة أدنبرة عام 1967م.

تقلد البروفسير عون الشريف قاسم . رحمه الله تعالى . مناصب مهمة في المجالين الأكاديمي والإداري حيث عمل أستاذا للأدب العربي في جامعة الخرطوم ورئيسا لتحرير مجلة الدراسات السودانية ووزير للشؤون الدينية والأوقاف لمدة عشر سنوات كاملة من عام 1971م وإلى عام 1981م وقد كان رئيسا لمجلس إدارة الصحافة للطباعة والنشر ورئيسا لتحرير مجلة الوادي التي كانت تصدر بالاشتراك بين دار الصحافة السودانية وروز اليوسف المصرية كما عمل مديرا لمعهد الخرطوم للغة العربية ورئيسا لمجلس جامعة الخرطوم.

لعل من السمات البارزة في حياة هذا العالم الجليل أنه بخلاف كثير من مفكري وعلماء السودان كان مهتما بالتأليف والنشر فلكره كما كان متميزا بكثرة ما ألف ونشر بالرغم من المناصب المهمة التي تولاها، فالرجل لم يركن لدعة المنصب ولم تضغله مهامه الرسمية عن التأليف والنشر، فقد صدرت له منذ عودته للسودان بعد أنهى دراسته في إنجلترا العديد من الكتب والدراسات، التي يمكن بوضوح رؤية اتجاهين فكريين سار عليهما في منهجه في التأليف.

أولهما: الاتجاه الأكاديمي التخصصي وهو ما ألف فيه العالم البروفسير عون في مجال اللغة العربية والأدب، وهما مجال تخصصه الدراسي، وقد نشرت له في هذا المجال الكثير من الكتب والتي على رأسها قاموسه المسمى قاموس اللهجة العامية في السودان.

ثانيهما: الاتجاه الثقافي: وينتمي هذا الاتجاه للفكر الإسلامي العام غير المنتمي لأي طائفة أو أي جماعة من الجماعات الإسلامية التي كانت ولا زالت تعج بها الساحة السياسية والدينية السودانية، فالرجل كان معروفا بعدم تعصبه الفكري للون معين من ألوان الفكر المذهبي بل يعد صاحب مدرسة فكرية متميزة، تدعو للتسامح والتعايش مع الآخر لذا فقد كان مهتما بدراسة الأصول الفكرية للإسلام في السودان، فجاءت معظم مؤلفاته الفكرية الدينية كدراسة للإسلام في السودان وكتابه الإسلام والعربية في السودان يمثل هذا الاتجاه بوضوح تام.

ويلاحظ أن معظم إن لم تكن كل مؤلفات علمنا رحمه الله لم تخرج عن هذين الاتجاهين اللغوي والاتجاه الإسلامي وفي كلا الحالتين كان يميل لدراسة الحالة السودانية سواء أكانت من خلال اللغة العربية بدراساته المتعددة عن اللهجة العامية السودانية² أو من خلال الإسلام وتغلغله في المجتمع السوداني³.

يمكننا إذن أن نقسم مؤلفاته رحمه الله وفق هذه الرؤية التي تميز بها وسار على هديها في كل مؤلفاته تقريبا

إلى قسمين:

أولا: مؤلفاته في مجال اللغة العربية والأدب:

(أ) كتاب قاموس اللهجة العامية في السودان:

طبع هذا القاموس الفائق الأهمية أول مرة في عام 1972م ثم طبع ثانية في عام 1982م أي بفارق زمني يزيد عن عشرة أعوام بين الطبعتين، مما أتاح للمؤلف فرصة للمراجعة والتعديل بالإضافة والحذف كما ذكر هو في

مقدمة الطبعة الثانية، فقد ذكر ذلك قائلا " وقد كان سعي متصلا خلال هذه الفترة في جمع المزيد من الكلمات والعبارات والشواهد، وتنقيح وتصحيح ما سبق أن سجلته من مواد"⁴

يحتوي هذا السفر الكبير على عدد كبير من الكلمات والعبارات والشواهد في اللهجة العامية السودانية، وقد أور المؤلف في مقدمته نبذة عن التنوع الإثني والبيئي الذي يميز السودان والذي انعكس في لهجته العامية العربية. وبين لنا المؤلف بعضا مما امتازت به تلك اللهجة من خصائص وسمات قد تشاركها في بعضها اللهجات العربية الأخرى في أقطارها المختلفة، كما أورد شواهد عديدة على أن بعض هذه السمات له أصول وجذور في العربية الفصحى.

ومن هذه السمات على سبيل المثال: الإبدال والقلب والحذف والزيادة والنحت. كما أورد بعض السمات المحلية للهجة العامية السودانية مما تفردت به دون غيرها من اللهجات العربية وهو ما سماه بالظواهر المحلية. كذلك أورد المؤلف بعض الظواهر غير العربية في تلك اللهجة في التراكيب والمحتوى.

وتحتوي المقدمة على كشف للرموز التي استخدمها المؤلف وكيفية الكشف عن معاني الكلمات في قاموسه. أحدث هذا القاموس ضجة كبيرة في الأوساط الفكرية والثقافية عند ظهوره في طبعته الأولى. فقد هاجمه البعض بحجة أنه دعوة للعامية واهتمام بها وكان الأولى الاهتمام بالفصحى لغة القرآن الكريم، كما انبرى له البعض مدافعا ومرحبا به باعتباره جهدا فكريا لتأصيل اللهجة العامية السودانية.

غير أن أهم ما كتب عنه تلك الدراسات التي قامت حوله ناقدة وموجه له ومستدركة لما يكون قد فات على المؤلف من أشياء كان الواجب الاهتمام بها. ومن أبرز تلك الدراسات ما قام به باحث سوداني آخر هو الأستاذ عمر محمد الحسن شاع الدين الذي تتبع مواد القاموس مادة بالدراسة والنقد.

(ب) كتاب دراسات في العامية:

صدر عن الدار السودانية للكتب عام 1972م. والكتاب عبارة عن دراسات عامة في العامية العربية، ومكانتها من ثقافة الأمة العربية وشخصيتها، مع التركيز على عامية أهل السودان، ويذكر المؤلف أن القصد من دراسة عامية أهل السودان أن تكون مدخلا لدراسات تفصيلية في العاميات العربية عامة وعامية أهل السودان خاصة⁵.

يدحض المؤلف في مقدمة الكتاب فكرة أن دراسة العامية لا جدوى منها، أنها دعوة إلى نبذ الفصحى، وتنتيت وحدة العالم العربي وذلك بقوله إن دراسة العاميات في العالم العربي، ومقارنتها ببعضها بعضا يؤدي للتقارب في مجال التفاهم الشخصي مما يدعم رابطة الفصحى ويوسع من دائرتها⁽⁶⁾. كما يبين أن الغرض من دراسته لم يكن إبراز العامية كبديل للفصحى العامية كبديل للفصحى ولكن الهدف منها هو التعرف على العامية وردّها إلى أصولها وتحليل جذورها، وأنها في مجال العامية السودانية عملية مسح فكري وثقافي لازمة كمقدمة لأي دراسة جادة عن المجتمع السوداني في بيئاته المتباينة.

يقسم الكاتب كتابه إلى فصول على حسب ما طرحه من فكرة في مقدمته، فيبدأ أولا بالبحث عن العلاقة بين اللغة والثقافة وكلاهما متصل أوثق الاتصال بالحديث عن الحضارة، كما يقدم مفهوما شاملا عن الحضارة باعتبارها أعم من مفهوم الثقافة، فالحضارة الغربية مفهوم عام يشمل ثقافات متعددة كالثقافة الإنجليزية والثقافة الفرنسية.... الخ. كما يفرق المؤلف بين الثقافة الرسمية وهي مفهوم متوارث يأخذ كل جيل منها ما يتلاءم مع عصره وبين الثقافة الشعبية التي هي ما تمثله شخصية الجماعة من الثقافة الرسمية فيتسرب في وجدانها ويصبح جزءا من اللاشعور الذي

العلامة المفكر البروفسير عون الشريف قاسم السوداني: حياته وفكره ومؤلفاته

يوجه حياتها الخاصة والعامة وهو الذي يمنح الأمة أهم مقومات شخصيتها⁷. يحاول المؤلف بهذه المقدمة التمهيد لدراسة المكونات الحضارية والثقافية للمجتمع السوداني وتأثير ذلك في اللهجة العامية السودانية، خاصة ما أسماه بالثقافة الشعبية وبمكونات العقل الشعبي الذي يبينه لنا ويجلو ثقافته اللسان الشعبي أو اللهجة العامية⁸.

تطرق المؤلف لعدة عوامل تأثرت بها العامية السودانية ومن أهمها تأثيرها باللغات القديمة وهو تأثر يتراوح بين التأثير البين الملموس، كإضافة مقاطع لها دلالاتها الخاصة للعربية لتحمل نفس الدلالات التي كانت لها في لغاتها الأصلية من مثل المقطع آب وآيب من البيجاوية والمقطع ابق وآق من النوبية هذا بالإضافة لكثير من الأصوات أقرب للأفريقية من مثل ذلك الصوت الذي بين النون والجيم. وبين التأثير الخفي في النطق والتراكيب، كالإبتاع والتحرك الذي يرده إلى تأثيرها بهذه اللغات فغالبية الظواهر النحوية والتركيبية غريبة على العربية.

يؤكد المؤلف على أن السبب في تنوع اللهجات وتباين أساليب الكلام عند أهل السودان يرجع لا تساع رقعة أرض السودان وتباعده أطرافه واختلاف بيئاته الجغرافية والإنسانية. ويضرب لذلك مثلا بلهجات غرب السودان وخاصة في كردفان فلهجة قبيلة البقارة تختلف عن لهجات الأباله ولهجات هؤلاء تختلف عن بعضها بحكم الموقع والإختلاط بغيرهم من السكان الأصليين.

يؤكد المؤلف أنه رغم هذا التباين والإختلاف في اللهجات العربية في السودان فإن هناك سمات عامة مشتركة بين المتحدثين بالعربية في السودان، مما يدل على علاقة تقارب واتصال بين مختلف المجموعات العربية في أقطار السودان المتباعدة⁹.

في الفصل " العامية في السودان " يخوض المؤلف بشيء من التفصيل في مكونات اللهجة العامية السودانية، ويبين ما أجمله في المقدمة من رواسب اللغات المنحدرة في اللهجة السودانية ويورد كثيرا من الشواهد والأمثلة على الأثر الباقي من هذه اللغات في العامية السودانية كبقاء كثير من الألفاظ الخاصة بالزراعة خاصة أسماء الآلات الزراعية القديمة مما لم تكن موجودة في لغة العرب المهاجرين، فكان أن استمرت معظم المصطلحات النوبية والفرعونية الخاصة بالزراعة لحاجة الناس إليها كالساقية وأجزائها فلم يجدوا غير القليل من أسمائها كالحلقة، والعطفة، والدلو أما بقيتها وتتجاوز الثلاثين فكلها نوبي كالكوديق والسبلوقة والتوريق والواسوق والكوريق والسبلوقة.... الخ وكذلك الأمر في النبرو والشادوف وكذلك في ألوان الأرض وأنواعها كالكرو والقرير والمقة كما بقيت أسماء الآلات الزراعية... الخ.

يفرد المؤلف صفحات عديدة ليبين صلة العامية السودانية باللغة العربية الفصحى فيوضح أن اللغة العربية نجحت إلى حد كبير في إخضاع اللغات القديمة وهضمت ما بقي من مخلفاتها ولكنها اضطرت بمرور الزمن إلى التكيف معها، وسرعان ما تطورت لغة الحديث إلى لهجة تختلف كثيرا عن اللغة الأم وإن احتفظت بكثير من خصائصها. وبعض هذه الخصائص اندثر في اللغة الأم نفسها في عصرنا الحاضر، ولكن اللهجة السودانية احتفظت بها كأثر شاهد على الأصل القديم الضائع.

ونستطيع بمنتهى السهولة ملاحظة العلاقة القوية التي تربط بين لهجات القبائل العربية في جزيرة العرب. ذلك أن اللغة العربية لم تكن في الأصل لغة واحدة بل كانت خليطا من لهجات مختلفة لقبائل كثيرة تبلورت قبل الإسلام في لغة قريش ولكن مع سيادة قريش فإن كثيرا من القبائل احتفظت بلهجتها الخاصة حتى حين نزحت خارج الجزيرة العربية واستوطنت بلادا منها السودان ويورد المؤلف عددا من هذه الظواهر مثل إبدال الحاء هاء (حسن/هسن) في

منطقة كردفان وتقابل لغة بني سعد بن زيد مناة بن تميم ولغة لحم وعليها قول رؤية " لله در الغنيات المده يريد " المدح " ومن مثل إبدال العين همزة والهمزة عينا كما في على (ألى) وفي (أمر) عمر وهي لغة من لغات العرب فالعرب تقول موت زؤاف وزعاف. وكذلك مثل لغة طيبي في اقتطاع اللفظ قبل تمامه أو الترخيم عند قبائل الرباط والمناصير فيقولون في كتاب كتاب (ب) والكلال (م) وكذلك ما نسمة من بعض قبائل كردفان فتقول أنطيته الكتاب أي أعطيته وهي عربية سعد بن بكر وهذيل وقيس والأنصار وورد في الحديث الشريف " لا مانع لما أنطيت، واليد المنطية خير من اليد الصفلي " وفريئ شذودا " إنا أنطيناك الكوثر ".

لا يقصر الأمر على احتفاظ العامية السودانية ببعض خصائص اللهجات العربية التي تلاشت بل احتفظت ببعض الصيغ التي ضاعت من اللغة العربية الأم. مثل لفظ سجم التي تعني السواد وفي الفصحى سخم وسخم وكذلك ألفاظ مثل انتفش وتحفش وكذلك اسم الآلة " النجامة " وتستعمل لقص الحشيش وهي مستنبطة من النجم وهو طلع من النبات وكذلك نجد كلمة البعائي¹⁰ وهي مستخرجة من البعث " حيث تقلب الاء تاء في عامية أهل السودان"¹¹.
يسمر المؤلف في التنقيب عن أثر الفصحى في عامية أهل السودان فيوضح ما دخل عليها من ظواهر من لغة فارس واليونان وذلك عن طريق تأثر العربية بمهاتين اللغتين فمن الفارسية انتقلت ألفاظ الأطعمة والملابس والأدوات مثل: البالوطة والباذنجان والكعك والجنزيرل والتمباك والنشادر ومن الأدوات الطشت أو (التست) والإبريق والجزلان والجنزيرة والدبارة والشوال والبردعة ومن الملابس ألفاظ مثل القفطان والسروال والبشكير وكل ألفاظ الطاولة مثل إليك ودو وسي وييش وشيش وجهار... الخ. كذلك أخت العامية السودانية من الألفاظ اليونانية الملوخية والباشمية والترمس والبقدونس ومن الأدوات الطاجن والالكير والمغنطيس ومنها أيضا المنخوليا والاسطبل والقبراط والعطرون والقانون وغيرها.

أفرد المؤلف في نهاية كتابه فصلا بعنوان بعض مظاهر الفصحى في عامية السودان. مينا ملمحا هاما في عامية السودان وهو التشابه الكبير بين الوضع اللغوي السائد في مناطق السودان الناطقة بالعامية العربية وبين الوضع اللغوي الذي كان سائدا في وسط الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام وبعده بقليل، ففي السودان قدر مشترك من لغة عامة عربية السمات يتفاهم بها الجميع رغم السمات المميزة لكل لهجة من لهجات القبائل المختلفة وهذا شبيه باللغة النموذجية المشتركة بين قبائل العرب والتي اتخذت من لهجة قريش إطارا عاما لها.

هذا القدر المشترك من اللهجة العامية السودانية هو ما حوال المؤلف بيان مظاهر الفصحى فيه فبيّن الفصيح الذي بقي على فصاحته، وكذلك بيّن احتفاظ العامية بظلال المعاني القصيحة وكذلك أوضح بقاء بعض الألفاظ الفصيحة في مناطق بعينها وشيوعها فيها دون سواها كذلك أوضح تفرق المعاني في المناطق المختلفة بحيث نجد المعاني المختلفة للكلمة الواحدة تتفرق بين القبائل المختلفة كما بيّن بقاء بعض مشتقات الألفاظ واندثار الأصل وكذلك الألفاظ التي ضاعت من الفصحى وبقيت حية في العامية السودانية كما بيّن ألفاظا ضاع معناها الأصلي واكتسبت معان جديدة، ومن طريف البحث أيضا ما أورده المؤلف عن التغيرات التي أصابت الكثير من الألفاظ في بنيتها بالزيادة أو النقصان والإبدال¹².

العلامة المفكر البروفسير عون الشريف قاسم السوداني: حياته وفكره ومؤلفاته

وفي نهاية الكتاب أوضح المؤلف . رحمه الله تعالى . الصلة القوية التي تربط عامية أهل السودان العربية بالعاميات العربية في أقطارها المتعددة، ذكرا قدرا من الألفاظ المشتركة بين هذه العاميات وبين عامية السودان، ويعترف المؤلف أن هذا باب كبير وشديد الاتساع ويحتاج لدراسات أكثر عمقا وشمولية.

(ج) كتاب شعر البصرة في العصر الأموي:

صدر هذا الكتاب عن دار الجليل بيروت ودار المأمون المحدودة بالخرطوم في طبعته الثانية عام 1991م. وهو عبارة عن الأطروحة التي نال بها مؤلفنا عليه الرحمة درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة إدنبرة عام 1967م والتي أشرف عليها الأستاذان وليام مونتغمري واط وبيير كاكيا وقد أوصت الجامعة بنشرها. كتبت الرسالة في الأصل باللغة الإنجليزية ثم قام المؤلف بترجمتها للعربية وقد كان للدكتور إحسان عباس الفضل في مراجعتها والتدقيق فيها قبل النشر ثم نشرت أول مرة ككتاب من دار الثقافة ببيروت عام 1973م¹³.

يبرز هذا الكتاب أهمية دور المجتمع في تشكيل الحياة الاجتماعية للناس، وذلك بتصوير ما تحفل به من أوجه النشاط وإبراز سلبياته وإيجابياته. مما يجعل من الأدب والفن أداة فاعلة من أدوات التقدم الاجتماعي.

يعتبر المؤلف أن دراسة الشعر في مدينة البصرة في العصر الأموي هو بمثابة الدراسة للشعر في معظم إن لم يكن كل حواضر الدولة الأموية هذا من جانب ومن جانب آخر كانت مدينة البصرة تمثل التطور الكبير الذي كان يحتاج الأمة العربية وهي تنتقل من صحرائها وبساطة الحياة فيها إلى الأمصار وما يكتنف الحياة فيها من تعقيد هو وليد الصدام بين مواضع الحضارة ومقتضيات الحضارة¹⁴.

قسم المؤلف الكتاب إلى أبواب وقد أفرد الباب الأول بفصوله الثلاثة لدراسة الجوانب السياسية والاجتماعية والثقافية لمجتمع البصرة. أما الباب الثاني فقد خصصه المؤلف لتبيان منزلة الشعر في مجتمع البصرة. والباب الرابع تحدث فيه المؤلف عن علاقة الدولة بالشعر ثم أفرد الباب الخامس لأثر التحول الاجتماعي على مرتكزاتهم الاجتماعية وانعكاس ذلك في شعرهم.

(د) كتاب الإسلام والعربية في السودان:

صدر هذا الكتاب في طبعته الأولى عام 1989م عن دار الجليل بيروت ونشرته دار المأمون المحدودة في الخرطوم.

تأتي أهمية هذا الكتاب كونه يمثل الاتجاهين الفكريين الذين شغلا بال المؤلف طويلا بل كانا هم الأول في معظم كتاباته وهما، الإسلام واللغة العربية في السودان. وقد قسم المؤلف كتابه لجزأين يمثلان هذين الاتجاهين، لذلك تأتي أهمية هذا الكتاب الذي يحاول فيه المؤلف الربط بين هذين الاتجاهين فهو في الجزء الأول محاولة للبحث عن دور الإسلام في التكوين القومي للسودان وأهميته في الوحدة الوطنية، وتقديم الإسلام كحل لمشكلات المجتمع مع تبيان مفصل للتعليم الديني في السودان من الفترة السابقة للحكم التركي ومرورا بالدولة المهديّة وانتهاء بالحكم الوطني بعد الاستقلال مع تقديم تقييم عام ورؤية هذا التعليم.

ويتطرق المؤلف لقضايا بالغة الأهمية يتشكل مستقبلا محور اهتمام المسلمين ليس في السودان فحسب بل في العالم كله. ومن هذه القضايا: البعد الاجتماعي للتشريعات الإسلامية، والتحرك الدبلوماسي والنهج الإسلامي الذي

أفرد له المؤلف كتابا مستقلا سماه دبلوماسية مُجَّد¹⁵، ووضع غير المسلمين في مجتمع مسلم، كما حفل الكتاب بملحق أورد فيه المؤلف أهم الكتب التي كانت متداولة في أيام دولة الفونج¹⁶ وأهم المساجد والخلاوي¹⁷ أيام الدولة المهديية. أما الجزء الثاني من الكتاب فقد خصصه الكاتب للعربية في السودان وتطرق فيه للعامة في السودان وبعض مظاهر الفصحى في تلك العامية كما أورد فصلا عن السودان في تاريخ العرب وأدبهم¹⁸.

ثانيا: مؤلفاته في الفكر والثقافة الإسلامية:

(أ) كتاب دبلوماسية مُجَّد:

هذا الكتاب هو بحث المؤلف التي نال به درجة الماجستير بتقدير ممتاز من جامعة لندن أواخر عام 1960م، وقد منحه معهد الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن إحدى جوائز وهي جائزة روفون قست (Rhuvon Guest) لأحسن دراسة عربية إسلامية بالمعهد لعام 1960. 1961م. وقد صدر الكتاب عن قسم التأليف والنشر بجامعة الخرطوم عام 1970. ثم أعيد طبعه عن دار الجيل ببيروت بلاشتراك مع دار المأمون المحدودة بالخرطوم عام 1991م تحت عنوان نشأة الدولة الإسلامية على عهد الرسول. كما ذكر المؤلف جهودا لترجمة هذا الكتاب للأردية والإنجليزية من قبل دار فانفارد للنشر بلاهور بباكستان بسعي من المدير بالإناابة لمعهد التدريب الدبلوماسي بالخارجية الباكستانية والدكتور أفضل إقبال والذي له كتاب باسم "الدبلوماسية في الإسلام"، ولكني لم أفق على هذه الترجمة وهل أنجزت أم لا.

والكتاب عبارة عن دراسة لنشأة الدولة الإسلامية في ضوء رسائل النبيص، فالكتاب فريد من حيث اعتماده في دراسته لنشأة الدولة الإسلامية على مجموعة من الوثائق التي تمثلها رسائل النبيص، ومعاهداته التي تحدد العلاقات بين السلطة المركزية في المدينة، وبين قبائل العربية في بقية شبه الجزيرة العربية¹⁹. هذا بخلاف ما درجت عليه الدراسات التي اهتمت بنشأة الدولة الإسلامية معتمدة على الأخبار والسيرة والكتابات التاريخية.

وقد بين المؤلف في مقدمة كتابه الدراسات السابقة لتلك الوثائق كدراسة فنشر فلهاوزن (Wellhausen) لبابين من كتاب (طبقات ابن سعد) خاصين برسائل النبي وعهوده مع وفود العرب. وقام شبرنجر (Spenger) وكاتباني (Cetani) وغيرهم من المستشرقين بترجمة بعض النصوص لتلك الرسائل والمعاهدات ودراستها وقام بعض العلماء في شبه القارة بتجميع وتصنيف لبعضها وترجمتها للأردية فترجم عبد المنعم خان وعبد الجليل خان النعمان ومُجَّد حميد الله بعض هذه النصوص. خاصة رسالة الأخير للدكتوراه والتي نشرت في كتابه (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي وعهد الخلافة الراشدة)²⁰.

ولكن كما بين مؤلفنا فإن معظم هذه الدراسات انصبت على إثبات صحة هذه الوثائق ونسبتها لمصادرها كمادة صالحة للبحث التاريخي، فكانت مهمة المؤلف إخضاع هذه الوثائق لدراسة مفصلة ليتمكن بذلك من إثبات صحتها ومكانتها في فهم مجرى التاريخ في هذه الحقبة من حياة الإسلام. وهذا ما قام به المؤلف خير قيام وكان عمدته في تقرير صحة أي نص أن ينسب محتوياته. ما أمكن. إلى الظروف التي صادت في الزمن الذين قيل إنه كُتبت فيه. كما اتبع المؤلف أسلوبا لغويا في إثبات صحة النصوص بمطابقتها مع تقاليد الكتابة التي تتبين في الأحاديث النبوية المسندة للرسول الكريم ليدعم الروابط النقدية التي اتبعها سابقا.

العلامة المفكر البروفسير عون الشريف قاسم السوداني: حياته وفكره ومؤلفاته

وقد أوضح المؤلف مرحلتين مرتتبتين بما كتبه رسائل النبي الكريم أولها ما كان قبل فتح مكة وتتميز بتوجهها لكسب العرب في مواجهة قريش، ومرحلة ما بعد الفتح واكتساب الإسلام القوة التي مكنت النبي من فرض شروطه في تلك الرسائل.

وقد اتبع المؤلف في دراسته ترتيب هذه النصوص من حيث الموضوعات باعتباره أفضل الأساليب لصعوبة ترتيبها على حسب المناطق التي أرسلت إليها، أو من حيث الترتيب الزمني، حيث بين الصعوبة في ذلك²¹.

(ب) في صحبة الإسلام والقرآن:

هذا الكتاب صدر أولاً في كتابين صغيرين بعنوان (الإسلام، عرض موجز لأركانه ومصادره) و (في صحبة القرآن) ما بين عام 1971م وكلاهما تعريف بالإسلام والقرآن بأسلوب مختصر مع ذكر أمهات المصادر قديمها وحديثها، ليسهل على القارئ الرجوع إليهما، وقد رأى المؤلف جمعهما في كتاب واحد صدر عن دار الجيل في طبعته الثالثة عام 1991م.

ويذكر المؤلف أنه خص الشباب بهذا الكتاب علّه يفتح به أمامهم أوسع الآفاق للتزود من الثقافة الإسلامية في مصادرها الأصلية.

وقد حاول المؤلف في الجزء الأول (في صحبة الإسلام) أن يقدم شرحاً مبسطاً لأركان الإسلام الخمسة وكما قدم عرضاً مبسطاً لمصادر التشريع والمذاهب الفقهية الأربعة مع نبذة موجزة عن بعض الفرق الإسلامية الكبيرة كما قدم فهرساً بأهم المراجع والمصادر الهامة فيما تطرق إليه من موضوعات.

أما الجزء الثاني من الكتاب وهو (في صحبة القرآن) فقد بين في أوله أهمية القرآن، ككتاب منزل، ثم بين مراحل جمعه وكتابه ثم تطرق في الفصل الرابع منه للأحرف السبعة في القراءات متعرضاً بإيجاز للقراءات السبعة وخص الفصل الثامن منه بالكلام عن أشهر التفاسير. أما الفصل الأخير فقد أورد المؤلف للحديث عن التأليف في علوم القرآن مبيناً أهم ما كتب عن القرآن من كتب ومؤلفات.

(ج) كتاب الرسالة الخاتمة:

طبع هذا الكتاب أول مرة عام 1979م، ثم كانت طبعته الثانية عام 1990م في فترة كان يمر فيها العالم الإسلامي بظروف صعبة أصابت الكثيرين بإحباطات شتى خاصة بعد أن ظن المسلمون أنهم مقبلون على عهد جديد بعد أن تخلصوا من الاستعمار القديم، فكانت الحرب الإيرانية العراقية، والتدخل الروسي في أفغانستان، والحرب الأهلية في لبنان²².

في هذا الكتاب يحاول المؤلف أن يذكر المسلمين بمنهج الإسلام وإسهامه في تشكيل حياة المسلمين وهم يتخطون عقبات القرن الخامس عشر الهجري. كما يحاول المؤلف أن يبين للمسلمين أن المخرج مما هم فيه هو في معرفة دينهم والتمسك به، فجاءت فصول الكتاب متوافقة مع ما يحتاجه المسلم ليتزود به في بناء الفرد والجماعة وبين العلم والإيمان والإسلام والعلم والإنسان والتقدم والجهاد الأكبر والتنوع في إطار الوحدة والإسلام ومستقبل الإنسانية.

(د) كتاب: في معركة التراث:

كانت فصول هذا الكتاب موزعة، في صورتها الأولى على كتابين. كما ذكر المؤلف في مقدمة الطبعة الثالثة. هما " من قضايا البعث الحضاري " الذي صدر عام 1971م. و " في معركة التراث " الصادر عام 1072م.

وللتقارب الكبير بين موضوعات الكتّابين رأي الكاتب الجمع بينهما في كتاب واحد باسم " في معركة التراث " الذي صدر في عام 1979م.

والكتاب جاء كما يقول المؤلف كرد فعل بالرجوع للذات بعد غربة المؤلف عن وطنه فترة دراسته في الغرب. المؤلف لم يبعث فيه الغرب الرهبة ولا الانهيار بحضارته كما هو متوقع بل زاده تمسكا بحضارته وبالرجوع لتراثه العربي والإسلامي ليكتشف فيهما ذاته وأصالته كمسلم²³، فالكتاب عبارة عن رجوع صدى لمرحلة من مراحل الوعي بالذات الذي افتقده المؤلف في ديار الغربة، وفيه دعوة للشباب المسلم لبذل الجهد لإحياء تراثهم ومعايشته ليتصل الماضي بالمستقبل.

(هـ) كتاب الإسلام والبعث القومي:

هذا الكتاب عبارة عن محاضرات أو مساجلات كتبها المؤلف في مناسبات فكرية وقومية مختلفة، عندما كان وزيراً للشؤون الدينية والأوقاف، بين عامي 1971م وعام 1979م وقد طبع لأول مرة عام 1976م وفي هذه الطبعة الثانية عام 1989م أعاد النظر في بعض ما كتب وأضاف المؤلف كثيراً من المواد.

يحاول المؤلف في هذا الكتاب التنبيه لخطر الاغتراب الثقافي لبعض المسلمين الذين سيطرت عليهم غلبة الثقافة الغربية وأخذوا يصدون عن التراث الحضاري لأمتهم ويعتقد بأن خطر هؤلاء أشد من خطر الغربيين أنفسهم لما أصابهم من مسخ فكري، لذا فقد جاءت فصول الكتاب لتبين أن المستقبل للإسلام ثم توضح الكثير من الأسس الفكرية في الإسلام ويدعو الكاتب في بعض فصول الكتاب للإعداد لمعركة المستقبل كما يتطرق لقضايا كانت ولا زالت تحم الأمة الإسلامية مثل ظاهرة استغلال الدين في السياسة وغيرها، ومعركة التحرير الحضاري و"استعارة الأصالة والمنتقف" وتحديات العصر.

رغم أن الكاتب كان مهتماً بقضايا كانت تبدو ملحة في زمنه إلا أن كثيراً من تلك القضايا لا زالت مثار اهتمام والمفكرين والعامه من الناس. كمسألة التضامن الإسلامي والتعريب والتقدم وما يمثّلها من قضايا تدل على بعد نظر المؤلف واستشرافه لقضايا مستقبلية في مسيرة الأمة الإسلامية.

(و) كتاب من صور التمازج القومي في السودان:

كانت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام 1988م تحت عنوان " حلفاية الملوك: التاريخ والبشر " ، أما الطبعة الثانية فقد كانت في عام 1990م عن دار جامعة أم درمان الإسلامية للطباعة والنشر وهي طبعة مزيدة ومنقحة. والكتاب عبارة عن دراسة في تاريخ منطقة حلفاية الملوك²⁴ السياسي والاجتماعي والثقافي وعلاقة أهلها بقبائل السودان المختلفة خلال العصور.

ولطبيعة الكتاب الوثائقية فقد اعتمد الكاتب على الملفات من المعاونين له من داخل الحلفاية وخارجها للمساعدة في جمع وتحقيق الوثائق التي شكلت مجموع كتابه. وقد استغرق هذا العمل الكبير ما يقرب من خمسة عشر عاماً قبل أن يرى النور في طبعته الأولى.

وترجع أهمية هذه المنطقة وجدارتها بالدراسة لما تتمتع به من خصائص تاريخية وجغرافية مما يجعلها نموذجاً رائعاً لما حدث في كل أنحاء السودان خلال القرون المتطاولة من تلاقح وتمازج وانصهار لكل العناصر البشرية في بوتقة الوحدة الوطنية التي صاغت الشخصية السودانية صياغة فريدة يرفد فيها تنوع العناصر وحدة الأمة.

العلامة المفكر البروفيسر عون الشريف قاسم السوداني: حياته وفكره ومؤلفاته

ويقدم الكتاب بجانب تاريخ منطقة الحلفاية دراسة فريدة للخريطة البشرية للمنطقة وذلك بتتبع أنساب القبائل المختلفة التي تسكن المنطقة وإرجاعها إلى أصولها العربية والتي تبلغ ست عشرة قبيلة موزعة على اثنتين وأربعين ومائة أسرة كبيرة²⁵.

يعتبر هذا الكتاب موسوعة اجتماعية فريدة لهذه المنطقة ومرجعا مهما يبين صورة من التمازج السكاني لأهل هذه المنطقة التي تعتبر نموذجا مصغرا للسودان الكبير.

خاتمة:

ما قدمته من نبذة صغيرة عن الحياة الحافلة التي عاشها المفكر والعالم البروفيسر عون الشريف قاسم تعتبر قبضا من فيض عمّ خيره الكثيرين، فقد أثرى الحياة الفكرية والمكتبة السودانية خاصة والمكتبة العربية والإسلامية بعدد معتبر من الكتب والمؤلفات التي أوردت معظمها فيما قدمته ولا يزال بعضها لم تتم طباعته إلى الآن، كما أنني قصرت اهتمامي بكتبه (عليه رحمة الله) المشهورة والمتداولة ولم أتطرق للعديد من مقالاته الصحفية التي نشرها على امتداد حياته الحافلة.

الهوامش والمصادر

- (1) تقع حلفاية الملوك على بعد حوالي السبعة أميال شمال الخرطوم بحري وكانت تعرف بالحلفاية ولما انتقل إليها العبدلاب واتخذوها عاصمة لهم أضيفت إلى ملوك العبدلاب فأصبح اسمها الشائع حلفاية الملوك وهناك روايات كثيرة عن معنى الحلفاية ويرجح المؤلف أن يكون اسمها مأخوذا من نبات الحلفا المنتشر في تلك المنطقة. من كتاب " من صور التمازج القومي في السودان " للبروفيسر عون الشريف قاسم . الطابعون جامعة أمّ درمان الإسلامية للطباعة والنشر الطبعة الثانية 1990م.
- (2) أنظر كتابه اللهجة العامية في السودان بجانب عمله الضخم قاموس اللهجة العامية في السودان.
- (3) ارجع لكتاب الإسلام والعربية في السودان.
- (4) مقدمة الطبعة الثانية من القاموس صفحة (5).
- (5) مقدمة كتاب دراسات في العامية، صفحة (3).
- (6) المرجع السابق نفسه ورقم الصفحة نفسها.
- (7) دراسات في العامية، صفحة (12).
- (8) دراسات في العامية، صفحة (14).
- (9) دراسات في العامية، صفحة (24).
- (10) البعاني اسم يدل على الشخص الذي يموت ثم يبعث من موته في التراث الشعبي ويستخدم في قص الأطفال والحكايات الخرافية (36).
- (11) دراسات في العامية، صفحة (36).
- (12) دراسات في العامية، صفحة (75).
- (13) من مقدمة كتاب شعر البصرة في العصر الأموي بقلم المؤلف صفحة (5).

- (14) شعر البصرة في العصر الأموي دراسة في السياسة والاجتماع صفحة (19).
- (15) انظر كتابه دبلوماسية مُجَّد الصادر عن قسم التأليف والنشر بجامعة الخرطوم (دون تاريخ).
- (16) دولة إسلامية قامت في السودان في القرن السادس عشر الميلادي.
- (17) الخلاوي جمع خلوة وهي مكان يُخصص لتحفيظ القرآن الكريم للصغار وهي تعادل الكتاب في مصر. وقد لعبت دورا كبيرا في التعليم الديني في السودان ولا زالت.
- (18) كتاب الإسلام والعربية في السودان دار الجيل 1989م.
- (19) مقدمة كتاب دبلوماسية مُجَّد صفحة(1).
- (20) Documents Sur La Diplomatic Musulamane,Paris1935.
- (21) دبلوماسية مُجَّد، صفحة (5).
- (22) مقدمة كتاب الرسالة الخاتمة. طبعة دار الجيل عام 1990م.
- (23) الرسالة الخاتمة (6).
- (24) الحلفاية مكان مولد المؤلف وله موقع ومكانة في تاريخ السودان الوسيط.
- (25) انظر إلى القسم الثاني من صور التمازج القومي في السودان ص 153.